واحد . ثلاثة أوزان (١) مخلع البسيط ومنه البيتان الأولان (٢) ومجزوء الرجز ومنه المصراع الذي يليهما . (٣) ثم مجزوء الرمل ومنه المصرعان الأخيران .

وقد يرى بعض الناس أن من الغلو في الجرأة أن يكون أحد المصراعين في البيت الواحد والثاني من بحر آخر . ولكن في الحق أن هذا هو التطور المنطقي لجمع البحور . فإذا كان مستحسناً أن يغير الإنسان الوزن بعد بيتين أو ثلاثة . فليس هناك معنى لأن يمتنع المرء عن تغييره في كل مصراع . بل وفي أقل من مصراع وقد فعل ذلك أحمد الأفاضل في الجزء الثالث من (لؤلؤ) في قصيدة من هذا النوع عنوانها (الشراع) جاء فيها :

وانتزع عنك كأس الليل ثوبا : (رمل)
شجبا (؟)
تحتك اللجة السحيقة تدوى (خفيف)
فوقك اللانهاية الأبدية (؟)
وأمامك الأفق البعيد يضلل (كامل)

والقارئ الذي يهمه هذا الضرب من الشعر يجب أن يرجع إلى هذه القصيدة لأنها خير مثال له بين أيدينا . ولولا ضيق المقام لتمثلنا بكثير من أبياتها .

وقد جاء في العدد الرابع من الرسالة منظومة للشاعر الفاضل إيليا أبو ماضي عنوانها الشاعر والسلطان الجائر . وقد أعجبنا ما فيها من خيال بديع . وكان افتتاحها بنوع خاص منبئاً بأن المنظومة من الدرر الغوالي . الآن هذه الدرر كانت ذات نظام مختلط إذ جعل الشاعر يغير من وزنها ست مرات أو سبعا . فلا تكاد الأذن تطمئن إلى نغمة . حتى يستبدل بها نغمة تخالفها وتغايرها . والذين اكتفوا بقراءة القطعة الأولى حكموا بأن القصيدة من أحسن الشعر . وأما الذين قرأوها إلى النهاية فقد أسف كثير منهم على أن الشاعر قد أفقد المنظومة حسنها لهذا الاضطراب في النظم : لأن لكل بحر أثراً خاصاً في النفس . وهذا التقلب السريع مما يزعج الخاطر . وينفر الأسماع .

لسنا بحاجة لأن نسرد للقارئ أمثلة أخرى نستدل بها على هذه الظاهرة الجديدة . التي بدت في كتابات بعض الشعراء . وليس من شك في أن (مجمع البحور) هذا سيكون شأنه شأن الشعر المرسل . سينادى به بعض الكتاب حيناً . وقد يستنجل أمره زمناً ما . ثم لا يلبث أن تخمد جذوته . ويذهب كما ذهب أخ له من قبل ؟

فلسفة برجسون

للأستاذ زكي نجيب محمود

ثورة على المادية

كان سبنسر المفكر الإنجليزي يقسم العلوم قسمة عامة . ثم ينتهي إلى إحدى نتيجتين : فهو إما أن يقسم العلوم في تلك المظاهر المادية التي تخضع للقوانين الآلية الصارمة . ثم ينصرف بناء على ذلك إلى دراسة الوجود المادي بما فيه من صور وأوضاع : وإما أن ينتهي إلى انكار ذلك الوجود المادي جملة وتفصيلا . واعتباره من خلق العقل وتكوينه . ثم يتجه على هذا الأساس إلى دراسة العقل وحده . لأن في دراسته دراسة للوجود بأسره . ما دام ذلك هو الذي خلق هذا خلقاً . وأنشأه انشاء .

إذاً فقد انقسم الفلاسفة قسمين مختلفين : فريق ينصرف بأسره إلى العلوم الطبيعية لأنها السبيل إلى تفهم مظاهر الكون . وفريق يكب على دراسة النفس انكبابا . لأنها هي كل شيء . ونحن نستطيع أن نقول في شيء من الدقة ان تاريخ الفلسفة الحديثة ينحصر في هذا العراك العنيف القائم بين علم النفس والعلوم الطبيعية . فهذه منشد الحقيقة في دراسة الظواهر المادية . وقد ترى في طريقها من بوارق الأمل الباسم ما تمضي معه في بحثها ثابتة اليقين موطدة العزيمة . وذلك يلتمسها في دراسة النفس دون المادة وهو مؤمن أن ليس أقوم من تلك السبيل سبيل

ولكن جاء القرن التاسع عشر . فانعرج ذلك المجرى الفكري بعض الشيء . واتجه إلى دراسة المظاهر المادية اتجاهاً مباشراً . دون الوقوف على هذه النفس الانسانية وقفة تحليلية . ولعل ذلك راجع إلى أن الانسان قد خيل إليه ان العلوم الرياضية والميكانيكية وما إليها . هي التي دفعت به في العصر الحديث هذا الدفع السريع . وله عذره في هذا الظن . ما دامت الصناعة التي تنمو ارجاؤها في أوربا . والتي قلبت الحياة رأساً على عقب . هي ربيبة تلك العلوم . . . إذا فلماذا لا تدرس هذه العلوم الطبيعية دون سواها ؟ هكذا اصطبغت الفلسفة في القرن الماضي بصبغة مادية . وذهبت في الفضاء صيحة ديكارت التي اخ بها في أن تبدأ الفلسفة سيرها من النفس ثم تتابع طريقها إلى العالم الخارجي .

انطوى القرن التاسع عشر أو كاد . فبدأ الانسان يفيق بعض الشيء من تلك الفتنة التي أخذ بها الانقلاب الصناعي . وأخذ الفكر ينزع عن نفسه شيئاً فشيئاً ذلك الثوب المادي الذي اشتمله واحتواه حيناً من الدهر . ويبحث عن حقيقة الوجود في « الحياة » التي تدب

ن اجسام الكون . لاف حركة القصور الذاتي التي تنتظم الجماد . ومازال الفكر يمعن في هذه النزعة الجديدة حتى كادت الحياة تذوب في المادة نفسها . واصطبغت العلوم الطبيعية بصبغة حيوية . وهكذا كتب لها أن تلقى السلاح وتندحر أمام علم النفس فيما تشب يبيما من عراك .

ولعل شوبنهور هو أول من فطن الى أن « الحياة » هي أساس الوجود ؛ ثم جاء برجسون في عصرنا الحاضر وتناول هذه الفكرة بحثا واستقصاء . حتى استطاع بقوة ايمانه أن يجذب اليها انظار هذا العالم الذي طغت عليه روح اللاأدرية والشك طغيانا مروعا .

عكف برجسون على دراسة المذهب المادي ، وخلاصته ان العالم كتلة موات من المادة والحركة . وان الحياة والفكر وكل خصائص الانسان ليست سوى اعراض مختلفة لتفاعل المادة والقوة التي تحرك دقائقها . فكان كلما أمعن في تلك الدراسة ، ازداد يقينا بفساد ذلك المذهب . وهو يتساءل في دهشة : اذا كان العقل مادة وكانت كل عملية عقلية عبارة عن هزة عصبية لا أكثر ولا أقل ، فما فائدة الشعور ؟ أليس مجرد وجود الادراك دليلا قويا على ضرورته ؟

يقول المذهب المادي أن ليس ثمة « حياة ارادية » . أي ليس في الوجود تلك القوة الحيوية التي تريد هذا فتعمله . ولا تريد ذاك فتنفذه ، وكل ما هنالك حالات مادية متتابعة ، كل حالة نتيجة لما قبلها ومقدمة لما بعدها ؛ وهنا يتساءل برجسون : اذا كان الوجود وما يحوي في لحظة معينة نتيجة آلية للحظة التي سبقتها ، دون أن تكون هناك قوة مدركة تنتقي وتكون وتختار ، واذا كانت تلك اللحظة السابقة بدورها أثرا آليا للتي سبقتها ، وهكذا دواليك . فحين اذاً نسير في هذا التسلسل حتى نصل الى القديم الأول ، ونتخذ منه سببا لكل ما طرأ على الكون من أحداث ، لا فرق بين دقيقها وجليلها ! ماذا ؟ هل يريدنا ذلك المذهب على أن نعتقد بأن القديم هو السبب فيما كتبه شكسبير مثلا ؟ وأنه العلة في خطابة أنطوني وهملت ؟ !

هكذا أخذ برجسون من منطق الماديين ما يكفي وحده للرد عليهم ودك مذهبهم من أساسه

العقل والجسم

لعل ما حدا بالانسان الى النزعة المادية في تفكيره هو ارتباطه بالمكان ارتباطا وثيقا ، حتى خيل اليه أن الحياة ليست الا هذه الصور المكانية التي يحسها ؟ ولكن الحق الذي لا ريب فيه هو ان جوهر الحياة وروحها انما ينحصران في الزمان أكثر مما يتعلقان بالمكان . والزمان في الواقع عبارة عن تراكم صور كونية بعضها فوق بعض ، أو ان شئت فقل صورة كونية واحدة امتدت على طول الزمان وأخذت تنمو وتتزايد شيئا فشيئا . ومعنى ذلك أن الماضي من بدء الأزل لم يفن ، وانما أخذ يتقدم وتتزايد أحداثه قليلا قليلا الى أن تضخم فكون الزمان الحاضر

واذا كان الزمان عبارة عن مجموع الصور التي مرت على الوجود فيستحيل أن يكون المستقبل مشابها للماضي . لأن في كل خطوة زيادة تضاف الى تلك الكومة المتراكمة ، وفي كل دقيقة ينشأ شيء جديد ليس نتيجة لمقدمة سابقة ولكنه خلق خلقاً ولا يمكن استنتاجه قبل حدوثه . فالتغير سنة الحياة وألزم صفاتها

والذاكرة عند الانسان هي الوعاء الذي يحتفظ مع الزمن فيختزن فيه هذه الصور المتراكمة المتزايدة ، لكي تكون لنا عونا في حياتنا ، اذ كلما اتسعت دائرة الحياة اتسع معها نطاق الاختيار ، أي يعرض للانسان مؤثرات عدة تستدعي منه سرعة اختيار للطريقة المناسبة لكل من تلك المؤثرات . وهذه المؤثرات وتلياتها تكون في الانسان ادراكا يستعين به في كل ما يعرض له من مشكلات

فالكائن الحي كتلة فعالة مؤثرة . لأنه يضيف الى العالم قوة ونشاطا ، وليس الانسان كما صوره الماديون آلة ميكانيكية لا حول لها ولا قوة ، ينفعل ويتأثر بعوامل البيئة دون أن يكون مركزا للخلق والريادة . ففي قولنا ان الانسان مدرك لما يعمل اعتراف ضمني بحرية اختياره .

قلنا ان وظيفة الذاكرة هي استدعاء الصور الذهنية التي مرت بنا في التجارب الماضية مقرونة بما سبقها وما تلاها ، فتتمكن بذلك من الحكم في المواقف المشابهة التي قد تعرض لنا ، حكما صادقا . ولكن للذاكرة فوق هذا عملا آخر ، فبواسطتها نستطيع أن نستوعب الخلود بأسره في دقيقة واحدة ، وفي ذلك تحرير لنا من قيود الضرورة الطبيعية التي تخضع لها الأشياء الجامدة . يخطئ اذاً من يحسب الانسان آلة صماء في يد القوانين المادية . انما هو كائن مدرك . حر الارادة . قادر على اختيار سلوكه معين ؛ والاختيار خلق وانشاء . فليس الانسان رتيبا في حياته كالحيوان المحدود بغرائزه .

واذاً فليس العقل والمخ (أي الجسم) شيئاً واحدا ؛ صحيح ان الادراك العقلي يعتمد على المخ ، يسير وينحط تبعا لسلامة هذا أو اعتلاله ، ولكن كما تعتمد ملابسك على المشجب . تظل عالية مادام المشجب مثبتا في الحائط ، وتهوي اذا ما سقط من مكانه . وبديهي أن ذلك لا يدل على أن الملابس والمشجب شيء واحد .

فالمخ مجموعة من التصورات وردود الأفعال . أما الادراك

هو تلك القوة التي تختار من بين تلك المجموعة ما تريد . المخ هو المجرى الذي يسير فيه تيار الادراك ، ولكن ليس الماء ويجراه شيئاً واحداً . وأنت يكن ذلك محدوداً بهذا . ولا بد له ان يخضع لاتواءاته وتعاريجه .

واذا كان هذا هكذا ، فما الذي حدا بنا الى الاعتقاد بأن العقل والمخ شيء واحد ؟ لعل ذلك راجع الى أن جزءاً من عقولنا ، وهو ما نسميه بالذكاء ، قد نشأ وتطور لكي يمارس الأجسام المادية ويتفهمها ، فاكتسب من هذا الميدان المادي كل تصوراته وقوانينه . وهكذا أخذ الارتباط الذهني بين العقل والمادة يسمو شيئاً فشيئاً . حتى انتهى بنا الأمر الى الظن بأنهما شيء واحد ؛ ولكن هذا الذكاء الذي يكشف لنا عن العلاقات التي تصل المظاهر الكونية بعضها ببعض ، عاجز كل العجز عن ادراك الامتداد الزمني وما يجري فيه لتلك المظاهر من تغير وخلق ، أو بعبارة أخرى هذا الذكاء الذي يفكر في الصور المادية لا يستطيع أن يدرك ما في الكون من حياة ، لأنه يلتقط صوراً متلاحقة بعضها يجيء في أثر بعض ، أي انه يلتقط صورة الكون في هذه اللحظة ، ثم صورته في اللحظة التي تليها ، ثم صورة ثالثة في التي تليها وهكذا . ومعنى ذلك أن العالم الخارجي في نظر العقل عبارة عن جملة صور لحظية تملأ كل صورة منها الكون بأسره ؛ هذه الصور تتلو الواحدة منها الأخرى لحظة بعد لحظة ، وكل صورة لحظية من هذه الصور تمثل الحقيقة الخارجية في لحظة من اللحظات . ثم من تتابعها يتألف مجموع الحقائق الخارجية من أول الماضي الى آخر المستقبل . الا أن تلك الصور تظل مستقلة في الذهن ، لا يتناولها الاستمرار أو الحركة التي تربطها جميعاً ، مع ان الحياة ليست الا في وصل هذه الصور المجزأة . مثل العقل في ذلك ، كمثل الشريط السينمائي الذي يلتقط عدداً من الصور المتلاحقة ، لا حياة في كل منها على حدة ، فاذا ما دبت فيها الحركة والاستمرار ، واتصل بعضها ببعض ، كونت حياة ، أو شيئاً يشبه الحياة . ولن يكون في هذه الصور التي تصلنا عن طريق الحواس شيء من الحياة ، حتى يتناولها تيار الحركة الدائم الذي يربط أشتاتها ويكون منها حقيقة واحدة يطرأ عليها التغير والتبدل كلما مر عليها شطر من الزمان

صحيح أن كل صورة حسية هي جزء من الحياة ، ولكن مجموعها لا يكون مجموعة الحياة ، الى أن يتحقق في أجزائها شرط الاتصال والربط ، فكما أن كل جزء من الخط المنحني يمكن أن يكون جزءاً من خط مستقيم بدليل أنهما يتماسان في أي نقطة شئت ، ومع ذلك لا تستطيع أن تقول : بما أن أجزاء هذا هي أجزاء ذاك ، اذن فالخط

المنحني هو الخط المستقيم ؛ كذلك قل في الحياة والمظاهر الطبيعية . فليست الحياة هي مجموعة المظاهر الطبيعية ، على الرغم من أن تلك المظاهر هي الجزئيات التي تتكون منها الحياة .

يستنتج من هذا أن العقل ليس هو الأداة الصالحة لادراك الحياة ، لأن هذا يطالب فوق مقدوره وأكثر مما يستطيع ، اذ العقل كما بينا يميل الى استعمال الوجود لصالحه . وهذا الاستعمال يتطلب منه وقف تيار الحياة الذي يدعى الكون ، وتجزئة الوجود للتمكن من بعضه . فالعقل والحواس آلات للتجزئة ، والغاية منهما تيسير الحياة لا تصوير الوجود ، أي انها تتناول الوجود في ظاهره ولكنها لا تنفذ الى باطنه . . . ولما كانت المعرفة الحقيقية هي التي تتمشى مع الوجود في تحوله ، وتتغلغل في باطن الأشياء . وتحسها احساساً مباشراً كما يحس الحمل الوديع وجوب الفرار من غائلة الذئاب ؛ فالبصيرة وحدها هي الأداة الصالحة لذلك النوع من المعرفة المباشرة ، لأنها حاسة الحياة التي تتغلغل تلك الوحدة الحيوية التي تربط أجزاء الوجود .

التطور خلق وانشاء

لا يمكن أن يكون تطور الحياة على تلك الصورة البشعة القاسية التي رسمها داروين وسبنسر ، انما التطور خلق مستمر ، وتجديد متواصل ، وتغير لا ينقطع .

الانتخاب الطبيعي عند داروين هو الأساس الذي تقوم عليه نشأة الأعضاء والوظائف والأنواع . ولكن لم يكد يستوي ذلك المذهب على قدميه ، حتى أحاط به من الصعاب والمشكلات ما لم يقو على رده ، فكاد يخر صريعاً وهو ما يزال في يفاعه .

كيف يستطيع الانتخاب الطبيعي أن يفسر نشأة حاسة الابصار مثلاً ؟ أولا ، لابد أن نسلم بأنه من المستحيل أن تكون العين قد نشأت على هذه الصورة المعقدة من بادىء الأمر ، فاذا فرضنا أنها تكونت بعد سلسلة من الأطوار ، فهل من اليسير أن نقنع عقلا سليما أن تلك الأدوار التي مرت بها عين الانسان تطابق تمام المطابقة الأدوار التي مرت بها الحواس الابصارية لانواع الحيوان جميعا ؟ ! مع أن الانتخاب الطبيعي أساسه المصادفة المحضة ! وهل من الجائز أن تكون سلسلة المصادفات التي تعاقبت على عين الانسان وأذنه وأنفه وسائر أعضائه الأخرى هي هي التي تعاقبت على أعضاء الحيوانات جميعاً ؟ !

واذا سلمنا — جدلا فقط — بأن تلك المصادفة السحرية

النحلية جائزة فى أنواع الحيوان لتشابه المؤثرات التى تحيط بها جميعا. فما قولك فى الحيوان والنبات . وهما نوعان يسيران فى طريقين مختلفين أتم اختلاف ؟ كيف يتفق الاثنان على طريقة واحدة للتناسل ؟ كيف يرتقى الحيوان . عن طريق المصادفة . الى اختراع الذكورة والأنوثة اداة للتكاثر . ثم يرتقى النبات عن هذا التوفيق وعن طريق المصادفة أيضاً ؟!!

كلا ! يستحيل أن يكون هذا الأساس الواهى قاعدة التطور ولابد أن يكون فى أجزاء الوجود — مهما تنوعت أشكالها — قوة كامنة متشابهة فى الجميع : هى الحياة . وهذه الحياة الحالة فى كل شىء تخلق فيه ميلا خاصاً وترجيحاً معينا يؤثران فى كل جزئى من جزئياته . وهكذا يظل الجسم المادى يتشكل ويتغير حسب ذلك التوجيه الذى تمليه تلك الحياة الدافقة الكامنة فيه . وليس ثمة قوة خارجية تعمل على التطور كما خيل الى داروين وأشياع مذهبه .

هذه الحياة الشاملة تسعى جهدها للتغلب على الجمود المادى وطمس معالمه من الوجود . فهى تتغلب على الموت بالتناسل ، وان ضحت فى سبيل ذلك الأفراد : وهى تبذل كل مافى طاقتها من قوة لتحرير نفسها من قوانين المادة وأغلالها : فوقوف الحيوان وسيره وسعيه وكل مايأتى من ضروب الحركة والنشاط . هو فى الواقع تحد من الحياة لتلك الأغلال والقيود .

كانت الحياة فى مبدأ ظهورها أشبه ماتكون بالمادة فى جمودها واستقرارها ، لأنها كانت تتمثل فى النبات وحده . والنبات كالجماد فى سكونه واستحالة سعيه وحركته : ولكنها ما لبثت أن اشتدت الحرية من تلك القيود المادية : وراحت تسعى وراء ذلك المثل الأعلى . فاخترعت أنواع الحيوان . وزودتها بشتى الأعضاء التى يستطيع أن يحقق بها شيئا من تلك الحرية المنشودة . ثم ما لبثت أن عقدت آمالها فى واحد من تلك الحيوانات جميعا : هو الانسان. فلا شك فى أن الحياة تحاول ما استطاعت أن تسخر من قيود المادة . ونحن نضحك ونسخر اذا مارأينا كائنا حيا يتصرف كما تتصرف الكتلة المادية الجامدة . كأن تزل قدمه فيسقط بقوة الجاذبية كما تسقط قطعة الحجر .

يتضح من ذلك أن الحياة قد سارت فى تطورها خلال مراحل ثلاث :

الأولى : مرحلة النبات اذ كانت أقرب ماتكون الى سكون المادة وجمودها .

الثانية : مرحلة الحيوان الغريزى كالنحل والنمل الذى يتحرك ويسعى . ولكن فى حدود مرسومة وخطة معلومة .

الثالثة : مرحلة الحيوان المفكر . الذى أخذ يسير فى طريق التفكير . ولن يزال هذا التفكير ينمو ويشتد ويستقيم . فهو ذخر الحياة وأملها الذى سيحقق لها مانشتد من حرية .

هذه الحياة التى لا تفتأ تخلق وتبتكر وتبتدع . والتى تلمس الحرية من قيود المادة . هى الله . فالله والحياة اسمان على مسمى واحد . ولكنه ليس هو سلطان تحديد يسود المادة . وليس مطلق الارادة كما تصوره الأديان . الا انه دائب فى التخلص من أغلاله وأصفاده وأغلب الظن أن الحياة ستظفر آخر الأمر . ونكاد نوقن أنها ستتغلب على الموت . فتحقق لها الحرية والخلود . فكل شىء جائز فى نظر الحياة مادام فى الزمن امتداد

وبعد . فما أجمل أن يرتفع صوت يرجعون بشيرا عما فى الكون من حياة فعالة خالقة ، ليقف تيار المادية الذى طغى على اوروبا فى القرن الماضى ، حتى غمرها بين ثناياه . وكم كنا نود أن نشترك معه فى نيل ذلك العرش الذى كان يتربع عليه اله العقل . ولكن على شريطة ألا يدعونا الى تقديس اله آخر : هو البصيرة : لأنها قد تخطىء كما تخطىء الحواس .

موجز التاريخ الطبيعى

فى علم الحيوان

للسنة الرابعة الثانوية

تأليف محمد كمال محمد

المدرس بمدرسة شبرا الثانوية

نشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر .

يقع فى ١٢٦ صفحة . وهو موضح بالرسوم وبه ثلاث لوحات ملونة ، سهل الأسلوب دقيق العبارة ، وقد عنى المؤلف عناية خاصة بصفات الرتب ، وذيله بمجموعة شيقة من الاسئلة

وهو يباع فى مقر اللجنة بشارع الساحة رقم ٣٩ تليفون ٤٢٩٩٢ ومن المكاتب الشهيرة وثمنه عشرة قروش عدا اجرة البريد